الترجمانة الكبرى

في أخبار المعمور براً وبحراً

لمؤرخ الدولة العلوية
أبو القاسم الزياني

1147 - 1249 هـ
1734 - 1833 م

حققه وعلق عليه:
عبد الكريم الفيلالي



زنقة الرخاء ـ الحي الصناعي ـ الرباط
☎: 79 57 02 / 79 69 14 فاكس : 79 03 43

رقم الإيداع القانوني
1991 / 795

طبعة

1412 هـ ـ 1991 م

الترجمانة الكبرى

في أخبار المعمور برّاً وبحراً..

لمؤرخ الدولة العلوية

أبو القاسم الزياني

1147 - 1249 هـ

1734 - 1833 م

حققه وعلق عليه:

عبد الكريم الفيلالي



زنقة الزحاء — الحي الصناعي — الرباط

☎ 79 57 02 / 79 69 14 فاكس : 43 03 79

مقدمة الطبعة الثانية

للمرة الثانية يعاد طبع «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً» لأبي القاسم الزياني 1147 ـــ 1249 هـ 1734 ـــ 1833م [1]. وذلك بواسطة دار نشر المعرفة للتوزيع والنشر، وبإلحاح من جمهور أبي القاسم الزياني في ربوع المغرب العربي وبقية الأقطار العربية الاسلامية التي كثر منها الطلب لهذا الكتاب الذي جمع الرحلات الثلاث لأبي القاسم الزياني، والتي سجل فيها وبطريقته الخاصة به إلى جانب مذكراته، الكثير من فصول التاريخ قديمه وحديثه إلى جانب الحوادث السياسية الكبرى التي حصلت في عصره، والزمن الطويل الذي مضى من عمره في مجال السياسة، ككاتب خاص للسلطان محمد بن عبد الله ثم كوزير وسفير بعد ما تنقل في وظيفة حاكم بين الجنوب والشمال والشرق.

منذ أكثر من عشرين سنة مضت، وبعد مضي أقل من خمس سنوات على الطبعة الأولى 1967 أصبح الكتاب شبه مفقود. وإن هو وجد فبثمن باهض يساوي أضعاف ما ظهر به لأول مرة «عشر مرات» ذلك أن القارىء العربي اكتشف في أبي القاسم الزياني الدافع الذي دفع بي ومنذ أكثر من ربع قرن مضى إلى التفكير في «إحياء التراث القومي» في عهد الدولة العلوية. ولذلك كان البدء بإنتاج أبي القاسم الزياني الذي ما كاد ينشر له كتاب الترجمانة الكبرى حتى ظهر من الضجة المفتعلة ضد أبي القاسم ما كنت أعرف أن أحفاد خصوم الصراحة والصدق وما تميز به إنتاج أبي القاسم سيفتعلونها. وفعلا تطور الموقف بطريقة أمسك عن التفصيل فيه لأن خصوم أبي القاسم في عهده كانوا شبه أقزام. وأحفادهم اليوم يتطاولون على كل مقام.

لكن الذي يعجب منه المرء هو تعرف الجمهور وبتلك السرعة على أبي القاسم الزياني الذي أصبح قراؤه يتكاثرون ليس في المغرب العربي، بل وفي جهات مختلفة من بلاد العالم العربي والإسلامي. وذلك بدافع ما لأبي القاسم الزياني من صدق في القصد وصراحة في القول. ونبل في الهدف ناهيك وأن أبا القاسم وليس في كتابه الترجمانة فقط، بل في كل كتبه تناول من القضايا والمواقف، ما كانت وستبقى جديدة بالنسبة للقارىء، ثم هي صالحة للمقارنة مع ما يحدث كثيرا في حياة الناس رغم اختلاف الزمان والمكان.

لأبي القاسم الزياني كثير من الكتب بلغت نحو 27. أصبحت جلها إن لم تكن كلها في عداد النادر شبه المفقود، ذلك لأن منها ما تفرد بموضوعه أبو القاسم الزياني وحده، والتي صرح فيها بما لم يستطعه غيره، بحيث كان بحق مثال المؤرخ الذي لم يكن يعنيه من التاريخ غير قول الحق وتدوينه مهما كان مُراً وجارحاً، ومهما جلب عليه من أذى مرضى النفوس وخفافيش الظلام، الذين يعكرون الصفو في كل زمان.

---

1) لقد افتتح الزياني الكتاب بالتعريف بنفسه بما فيه الكفاية راجع ص 65/52 ولذلك لم نتناول في هذه المقدمة كسابقتها أطوار حياته.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله الذي اكرمنا بالاسلام وجعلنا من امة مولانا محمد عليه افضل الصلاة وازكى السلام ، وشرف مغربنا بولاية هذا الامام الذي هو اعدل ملوك الاسلام ، واعلم ذوي المحابر والاقلام ، واعلم من قال ربي الله واستقـام ، وكيف لا وهو من السلالة العلوية ، والبضعة النبوية الكرام ، امراء المؤمنين العظام ، المعتمد على الرحيم الرحمان ، **امير المؤمنين مولانا سليمان** (1) ابن السلطان المقدس الاسعد ، أمير المؤمنين مولانا محمد ، ابن السلطان المتوكل على الله ، امير المؤمنين مولانا عبد الله ، ابن السلطان الجليل الماجد الاصيل ابو النصر مولانا اسماعيل ، ابن الزاهد في الملك ، وشهرته تغني عن التعريف، به ، ابو الاملاك مولانا الشريف ، ابن القطب دفين مراكش مولانا علي الشريف، الذي هو احد العشرة أهل السلسلة الابريز ، المشهورة عند اهل العرفان والتمييز ، الى الجد القادم من الحجاز مولانا الحسن الشريف ، عليهم من الله ازكى الرحمات والتشريف .

وبعد فيقول العبد الفقير الجاني،ابو القاسم ابن احمد الزياني،اني لما رمت بي الاقدار ، وجلت في الاقطار ، وشاهدت كثيراً من الامصار ، في البراري والبحار ، ووقفت على كثير من الاخبار ، واجتمعت بجملة وافرة من الامراء الابرار ، والعلماء النجباء الاخيار ، واستفدت منهم ما شاء الله من الاثار ، وقيدت من احوال هذا العالم ما في دواوين الاخبار ، وعدت ممتلىء الحواصل، من خبر الاواخر والاوائل ، ولما ألقيت عصى التسيار ، واستقرت بنا الدار ، في ظل هذا الامام العظيم المقدار (2) جمعت ما قيدته في رحلاتي الثلاث ، وما شاهدته من الامصار والبحار ، وما لقيت من السادات ، جعلته رحلة واحدة

---

1) يقصد بابي الربيع المولى سليمان بن محمد بن عبد الله (1792 ــ 1822) .

2) كذا في الاصل وفي نسخة الخزانة العامة بالرباط 659 حرف د . ص . 2 وهي قريبة العهد يرجع تاريخ نسخها الى 60 سنة مضت كما انها ناقصة عن التي بأيدينا .

على قاعدة النحاة فى جواز الجمع بين الاخوات وسميتها **الترجمانة الكبرى** والتي جمعت أخبار العالم برا وبحرا .

منهاجه ومصادره :

ولم تقتصر على ما فى الرشاطي (*) من الامصار ، ولا على ما جمعه ابن عبد المنعم فى الروض المعطار ، وزادت على ما جلبه ابن الجوزي من اخبار البحار والقفار ، وعلى ما فى خريدة العجائب من الجزر والعيون والابار والانهار ، وعلى ما فى عجائب المقدور من نفائس الحكم والاسرار ، وابرزت ما اغفلوه ولم يكن به شعور وانذار ، وحليتها بحوادث ونوادر وحكايات جلبها المؤرخون الكبار ، كالامام ابن قتيبة (1) ، والمسعودي (2) ، والطبري ، وابن عساكر (3) ، والذهبي (4) ، والبكري (5) ، والبلاذري (6) ، وابن كثير ،

---

*) الرشاطي : هو عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الاندلسي عالم بالانساب والحديث من اهل اريولة سكن المرية ولد وتوفى 1074 – 1147 م من كتبه « اقتباس الانوار والتماس الازهار فى انساب الصحابة ورواة الاثار »

1) هو عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة (828 – 889) مؤلف ولد بالكوفة او بغداد وبها مات اشتغل قاضيا مدة بالدمنور ومدرسا ببغداد ، الم بمعارف عصره والف فيها المصنفات الجيدة فشبه بالجاحظ وكان فى اللغة والنحو ، بغدادي المذهب يخلط بين اقوال البصريين والكوفيين وأهم كتبه اللغوية :
أ – ادب الكاتب . ب – معاني الشعر . كما شارك فى الجدل الديني القائم واهم كتبه الدينية : ج – غريب القرآن . د – غريب الحديث . هـ – شكل القرآن . و – المشتبه من الحديث والقرآن . وأهم كتبه التاريخية : ز – عيون الاخبار . ح – المعارف . ط – الشعر والشعراء .

2) المسعودي ابو الحسن علي بن الحسين توفى (957 م بمصر) جغرافي ومؤرخ له عشرات الكتب منها : مروج الذهب ومعادن الجوهر .

3) ابن عساكر هو علي بن الحسن 1105 – 1176 مؤرخ ورحالة عربي ولد بدمشق وعلم فى كثير من بلاد المشرق أهم ما الفه تاريخ دمشق فى 8 مجلدات .

4) هو محمد بن احمد التركماني ولد وتوفى بدمشق 1274 – 1348 جال فى كثير من الاقطار والف وحقق الى أن كف بصره له مؤلفات كثيرة منها : – دول الاسلام – و – تاريخ الاسلام الكبير – و – سير النبلاء – و – الكاشف فى تراجم رجال الحديث – .

5) هو محمد بن عبد الرحمن الشافعي الاشعري المعروف بالبكري الصديق ولد وتوفى بالقاهرة ما بين 1492 – 1545 شاعر صوفي كان يقيم بمصر سنة وبمكة اخرى . له من الكتب :
أ – ترجمان الاسرار وتجليات الاسحار . ب – تاريخ خيالي منظوم عن فتح مكة اسماه – الدرة المكللة فى فتح مكة المبجلة . ج وفى التصوف والتفسير : كفاية المحسن فى وصف المؤمن – د – فضائل رمضان – هـ – تسهيل السبيل فى فهم معاني التنزيل – ثم ابو عبيد البكري التلطيسي الاندلسي (1040 – 1094 م) ... كان والده عبدالعزيز اميرا فاستولى المعتضد على امارته له مؤلفات كثيرة منها : المالك والممالك .

6) هو احمد بن يحيى الفارسي توفى حوالي 892 م من اهم مصنفاته كتاب «فتوح البلدان»

وابن خلدون (1) ، وابن ابي زرع (2) ؛ وابن زيدون (3) ، وابن حزم ، وابن مرزوق (4) ، وابن الخطيب (5) .

---

1) هو ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولد بتونس وتعلم بها . وكان ما بين « 1332 – 1406 » مؤرخا وفيلسوفا اجتماعيا بل قيل انه واضع علم الاجتماع غير ان هذا الحكم لايصبح استقرائيا الا اذا تم اكتشاف كل التراث العربي بالمغرب والاندلس خصوصا اذا علمنا التقلبات التي مر بها ابن خلدون والسياسة التي كان ينهجها ، ومهما يكن فان علم الاجتماع تنسب اليه بدايته ، اذ هو اول من فكر فيما لم يفكر فيه كل الاقدمين بالنسبة لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

غير ان منهجه التاريخي الذي لم يستطع تطبيقه على انتاجه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى التاريخ يجر عليه بعض الشكوك . اما مقدمته فتتميز بالجديد الذي لم يخطر على بال ارسطو كما يقوله ، وذلك فى العمران والنظريات السياسية والاجتماع الذي يقول انه فرع فلسفي جديد . مما دعاه للنقد على الفلاسفة المتقدمين اقتصارهم على دراسة العالم العلوي والذات الالهية ، وقولهم بآراء لايمكن للفلاسفة ان يبرهنوا عليها . ووقف هو عند العالم الذي نعيش فيه ، لان معرفتنا به اوثق من معرفتنا بعالم ال مقل الذي يعنى به الفلاسفة ، لاننا نستطيع بملاحظة ما فى انفسنا وما فى عالمنا ان نجد وقائع يمكن البرهنة عليها والتماس عللها .

وللمنهج التاريخي عنده قواعد للبحث فى تلك الوقائع واهمها ان الوقائع يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول وبهذا جعل التاريخ فرعا من الفلسفة وجعل له موضوعا هو الحياة الاجتماعية وما يتصل بها من حضارة مادية وعقلية والتي تتطور من بداوة الى حضارة . واسرة ودولة وقبيلة ... الخ

2) هو ابو الحسن الفاسي المعروف بابن ابى زرع له كتابان فى التاريخ : أ – زهرة البستان فى اخبار الزمان . ب – الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس .

3) هو احمد بن عبد الله الشاعر الكاتب الوزير ولد بقرطبة « 1003 – 1071 » وكان والده قاضيا بعدما درس الادب واللغة والاخبار اتصل بابن جهور امير قرطبة فاتخذه وزيرا وبمكيدة من ابن عبدوس سجن ففر واختفى ثم اتصل بابنه ابى الوليد ، ولكن الدسائس تجددت فهاجر الى اشبيلية ، حيث كتب ووزر للمعتضد والمعتمد الذي امنه على فتح قرطبة ، مات باشبيلية .
احب ولادة بنت المستكفي التي كانت تقبل عليه احيانا وتهجره الى غريمه ابن عبدوس احيانا اخرى ، وذلك ما صوره فى شعره المتصف بالعذوبة وتوفر النغم الموسيقي والسهولة . شهر غزله واستعطافه خاصة كما شهر من نثره الكثير رسالتاه « الجدية » التي استعطف بها ابن جهور وهو فى سجنه ، والهزلية التى كتبها على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس ويهجوه . له ديوان مطبوع .

4) محمد ابن مرزوق صاحب « المسند الصحيح الحسن فى احاديث السلطان ابى الحسن » ولد سنة 1380 م وجدت نسخة منه بتامكروت وتوجد نسخة بالاسكوريال .

5) هو لسان الدين ابن الخطيب السلماني الملقب بذي الوزارتين واسرته فى قرطبة تعرف ببني الوزير ولد وتوفى 1331 – 1374 كانت آخر ايامه نحسا نتيجة منهاجه الخلدوني فى السياسة ، كتب فى الادب والتاريخ والجغرافيا ، من مؤلفاته :

أ – اللمحة البدرية فى الدولة النصرية . ب – الاحاطة فى اخبار غرناطة . ج رقم الحلل فى نظم الدول . د – معيار الاختبار فى ذكر المشاهد والديار . هـ – اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . قليل الامانة فى بعض ما كتب .

قيدت من غرر كلامهم اوفر نصيب ، وضمنتها ما فى رحلة البكري من النكت والاشعار ، وما فى رحلة البلوي (1) ، من نفائس الاخبار ، وما فى رحلة السرخسي (2) للاندلس والمغرب ، من كل ما يعجب ويطرب ، وما فى رحلتي العياشي ، ومحاضرة اليوسي ، وأدبيات الولالي ، وابن سعيد السوسي ، وما يناسب ذلك من البراهين القاطعة ، من التفسير والفقه والحديث ، ومن شواهد العرب قديمهم والحديث، فى الرد على المجوس واليهود واهل التثليث، واهل البدعة والاعتقاد الخبيث ، وكلت لهم بالمكيال الاوفى ، حسبما سطره من تصدى لهم من الايمة ووفى ، محبة فى جناب المصطفى ، **وجعلتها قربة لهذا الجانب الاعظم ، والسلطان العادل الافخم ، الذي هو فى أنواع العلوم المقدم ، وعند ملوك الاسلام مسموع الكلمة محترم ، ومن الله استمد ، وعلى معونته اعتمد** ، فأقـــــول :

دوافع تأليفه :

اني استغفر الله من الذنب الذي يكون سببا فى الخروج عن المسالك ، الى الوقوع فى المهالك ، وذلك سبيل من يركب بنفسه الاخطار ، ويرغب فى زهرة هذه الدار ، خصوصا من يسعى لخدمة الملوك ، التي تصير الحـر مملوكا ، والغني صعلوكا ، سيما فى هذا الوقت التي صفرت فيه الهمم ، وكسدت سوق صاحب السيف والقلم ، ورسب تحت الماء الفاضل والعادل العاقل ، وطفا فوقه السفيه والعاطل والخامل والجاهل ، وساءت أحوال أهله وشالت نعامة فحله ، وقل خيره وكثر شره ، وغلب بره فأجره ، ولولا ان الله تدارك أهل الاسلام بوجود هذا الامام العالم العادل الكامل (3) ، لاكل

---

1) مـؤرخ نشأ بمصر حوالي 924 الف كتاب « سيرة ابن طولون » •

2) هو ابن الطيب السرخسي احمد بن محمد ولد بسرخس بخراسان وتوفـى ببغـــداد حوالى 899 تتلمذ على الكندي الفيلسوف والف كتبا كثيرة فى الادب والثقافة وعلـــوم الفلـسفة ، والمنطـق ، والرياضة ، والفلك ، والسياسة والموسيقى والجغرافيا والملـــل والمذاهب مثل : ـ القيـان ـ و ـ اللهو والملاهي ـ و ـ الجلساء والمجالسة ـ و ـ الشطرنـــج ••• الـخ •
كان معلما للخليفة المعتضد ثم نديما ، ولاه الحسبة والمـواريث وسوق الرقيـــق 895 وحبسه 896 لافشائـه اسـراره •

3) هو ابو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله ابن اسماعيل ، كـان احب ابناء سيـدي محمد بن عبد الله الى نفسه تولى الملك بعد اليزيد الذي دام ملكه سنتين حيث بويـــع المولى سليمان سنة 206 هـ/1971 ــ توفى في 239هـ/1823 م تاركا وصيته لابن أخيه التقي المولى عبد الرحمن بن هشام. كانت كل أيامه عدلا وأمنا ورخاء. له مؤلفات في الفقه منها رسالة في الرد على من أنكر التجمير في زمن الصوم، الخزانة العامة بالرباط رقم 92 حرف ح. لمعرفة جوانبه العلمية أكثر يراجع انتاج حمدون بن الحاج السلمى ديوانه وآثاره في الأدب والفقه والأصول والمنطق.

القوي الضعيف ودعا الدين داعي التبديل والتحريف ، فالحذر الحذر ، من خلطة الناس ، واقطع من نفعهم اليأس ، فلقد قال الحريري (1) :

« اختبرت أبناء هذا الزمن فوجدت أكثرهم سقطا » .

وقال ابو العلاء المعري (2) « لو انصف الحريري لقال كلهم سقط » فان عرجت على هذا النمط ربما تسلم من الفلط ، والا خفضت مع من خفض، فالعاقل يسمع ولا يجيب، ويرى ولا يعيب، ويحسن المعيب للعدو والحبيب.



مولده وتعليمه وأساتذته :

ولما بلغت مبلغ الرجال ، وحفظت كلام الله عز وجل على وجه الكمال ، وطمحت نفسي لقراءة العلم الشريف ، ونسخ ما احتاج اليه من كل شرح لطيف ، فأول من قرأت عليه الجرومية والسنوسية وابن عاشر :

شيخنا الفقيه سيدي احمد ابن الطاهر الشرقي :

ثم قرات الرسالة على **شيخنا سيدي الطيب القادري** ، بمسجد الاندلس

ثم حضرت تشقيق الالفية بمدرسة الصهريج ، عند سيدي عبد القادر بوخريص ، مع ولديه العربي وأحمد .

ثم الرسالة بمجلس واحد .

ثم صرتاحضر درسه مع الطلبة بالمدرسة فى التفسير وخليل والالفية.

---

1) هو ابو القاسم بن علي ولد بالمشان من ضواحي البصرة 1054 توفي بالبصرة 1122 اشتهر بمقاماته (50) التي قلد فيها بديع الزمان ...

2) هو ابو العلاء احمد (973 – 1057) ولد بمعرة النعمان قرب حلب وفقد بصره نتيجة الجلري الذي اصابه فى طفولته • درس على والده ثم بالشام وبغداد ولكن اهانة الشريف المرتضى اعادته الى مسقط رأسه حيث اعتزل الناس ، فسمى نفسه رهين المحبسين عزلته وعماه • بدا حياته الادبية بمحاكاة المتنبي الذي كان معجبا به كما يظهر ذلك فى ديوانه (سقط الزند) امتنع بعد عزلته عن أكل اللحوم • خالف اهل زمانه فى كثير من افكارهم ومعتقداتهم الدينية والاجتماعية ونظم ذلك شعرا فى (اللزوميات) أو (لزوم ما لا يلزم) التي التزم فيها ان يقيد نفسه بقواعد فى الصياغة والقوافى غير ضرورية . الف عدة كتب اشهرها « رسالة الغفران » وهي اقرب ان تكون حوادثها قصة يوم القيامة والجنة والنار ، وبين النقاد خلاف حول تأثر الشاعر الايطالي «دانتى» بها فى الكوميديا المقدسة • له ايضا (الفصول والغايات) ثم رسائل فى الرد على داعي الدعاة الفاطمى حيث يناقشه فى فلسفة الامتناع عن اللحم • كتب عنه طه حسين 3 كتب•

ثم لازمت درس ابي حفص سيدي عمر الفاسي لخليل بالقرويين ، وكان لا يحضر مجلسه الا المشاهير من طلبة فاس ، كالسيد عبد السلام حسين ، والشيخ العربي القسمطيني ، والسيد محمد سحنون ، وسيدي الوليد العراقي ، وسيدي يحيى الشفشاوني ، والسيد محمد الهواري ، والسيد محمد ابن عبد السلام الفاسي ، والسيد عبد القادر ابن شقرون ، والسيد محمد سكيرج ، وامثالهم من أولاد فاس .

وكانت له عادة لا تتحرف فى زمن الربيع ، يتوجه مع طلبته المذكورين للنزهة كل خميس ، فكنت أتوجه مع رفيقي محمد سحنون ، وكان مجاورا لنا ، فذكروا للفقيه عني أشياء كنت اتهم بها ، فقال لي يوما بالنزهة يا فلان ؟

أرنا شيئا مما تعلمه ولا نعلمه نحن ، وحتم علي فى ذلك فخجلت منه وقلت له لم يتهيأ لي عمل الآن ، فقال ولو ما خف ، فقلت لم يحضر لي شيء الآن ، فكان ذلك سبب انقطاعي عنه .

ثم قرات بعده مختصر السنوسي ، ثم كنت احضر مجلس **شيخنا سيدي محمد بن ابراهيم لخليل** ، بمدرسة العطارين .

ثم مجلس الالفية بالقرويين .

ثم حضرت مجلس **الشيخ التاودي** فى البخاري والشفاء (1) .

ثم لازمت درس الفقه سيدي محمد بناني ، الى أن أكملت نسخ حاشيته على الزرقاني ، فكنت أطالعه واحضر مجلس الشيخ سيدي محمد ابن ابراهيم فى درس خليل ، فكنت اشمئز (2) من ابحاثه الى أن كان عام تسع وستين ومائة وألف ، وعزم والدي رحمه الله على الرحلة الحجاز بكليته ، بقصد الحج والمجاورة بالحرم الشريف ، حسبما ياتي سياقه ، فباع دارين كانتا له بفاس ، وكتب لوالده جدنا سيدي علي ابن ابراهيم رحمه الله، فوجدت كناشا بخط يده ، فيه رفع نسبه الى حام ابن نوح عليه السلام ، وكان فقيها استاذا عشريا نسابة اخباريا ، لم يكن فى وقته من يلحقه فى النسب ، وهو ممن عدهم

---

1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى : هو للشاعر المؤرخ الفقيه القاضي عياض السبتي ولد وتوفى 1083 – 1149 درس على ابن رشد وغيره من علماء عصره ، تولى التعليم والقضاء فى سبتة وقرطبة ، له ايضا مشارق الانوار فى اقتفاء صحيح الآثار

2) مما يدل على ان المؤلف تاثر بمذهب الشيخ الامام سيدي محمد بن عبد الله الذي اشار على القضاة فى عهده بعدم اتخاذ الشروح التي وضعت لخليل وسيلة لاصدار احكامهم وانما يعتمدون على الراجحبالكتاب والسنة . راجع الاتحاف ج 3 .

الشيخ الحسن اليوسي من اشياخه ، قال قرأت من الروايات السبع على شيخنا سيدي علي ابن ابراهيم الزياني بمدشر « أراق » من بلاد ادخسان ، وعنه اخذت عمود اجدادي الى يَدْرَاسَنْ ابي القبيل ، لانه كان نسابة الوقت اه كلام اليوسي .

والسلطان اسماعيل انقله من أراق لمكناسة ، وكان امامه يصلي به ، وتوجه ووالدي رحمه الله الذي كان يقرأ عليه ، الى ان توفى بمكناسة ، **وتوفى السلطان اسماعيل عام تسعة وثلاثين ومائة والف .**

مولد المؤلف :

فانتقل والدي لفاس واستوطنها وولدت له بها سنة سبع وأربعين ومائة والف .

ولما طالعت الكناش الذي فيه رفع نسبه الى ابي قبيلة زيان ، ومنه للجد مالو الصنهاجي ومن مالو رفعه الى اليسع ، الذي أسلم على ما فى تاريخ سليمان بن سابق المطماطي نسابة البربر ، ومنه الى صنهاج أبي صنهاجة فى الجاهلية ، ومنه الى البربري مازيغ ابن نبذا ، بن كنعان ، ابن نوح عليه السلام

وهذا سبب اعتنائي بالبحث عن كتب التاريخ والانساب ، لما وجدت فيه من تقييداته رحمه الله ، وكانت الرحلة مع والدي رحمه الله ووالدتي ، سنة تسع وستين ومائة والف ، فى ايام **السلطان عبد الله** رحمه الله ، والرحلة الثانية كانت عام مائتين والف للاصطنبول فى ايام سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ، وهو الذي وجهني لها ، والرحلة الثالثة كانت سنة ست ومائتين والف ، فى أيام السلطان مولانا سليمان رضي الله عنه .

الرحلة الاولى :

وسياق الاولى اني توجهت مع والدي وسني اذ ذاك ثلاث وعشرون سنة بقصد اداء الفرض والمجاورة بحرم الرسول صلى الله عليه وسلم ، لانه سئم المغرب والمقام به ، لتبدل أحواله عما كان يعهد ، ففر بدينه وهيأ أسبابا وأنا مساعده على شأنه ، ومتصرفه عن مراده واذنه ، وكان رحمه الله يحبني اذ لم يبق له من أولاده غيري ، وكنت اسعى فى خاطره ورضاه بكل ما يرضاه ، واسعى فى خاطر والدتي على طيشي وحدتي ، ولما بلغنا مصر وتعين سفر الركب الى الحجاز ، اشار على والدي بعض الاصحاب أن يشتري لي بعض الاسباب ، ويسافر فى بحر القلزم مع الركاب ، لقلة المشقة وقرب المسافة ، فباع له ما باع من تلك الاسباب ، واشترى له ما ينفق بتلك الرحاب ،

واكترى له الابل لحمل تلك البضاعة ، وسافرنا مع الجماعة ولما بلغنا مدينة السويس مأوى المراكب ، اكترى لنا ذاك الصاحب ، ولما قابلنا مرسى الينبع (1) تكسر المركب وتلفت البضاعة والاسباب ، وعتق الله الرقاب .

وهذه النكبة الاولى احدى النكب السبع ، التي تلف فيها الوسع ، وكان عند والدتي ثلاثمائة دينار مخيطة فى حزامها ، أعدتها لحادث الدهر ان الم بها، لا علم لنا بصريحها ولا ابهامها ، فلما انقطعنا بالينبع أخرجتها لوالدي وقالت هذه كنت ادخرتها من خالص رزقي لولدي ، فمنها اكترينا لجدة ومكة ، وحصلنا الحج واتممنا العمرة ، ولما فرغنا من مناسك الحج ونوافله، وقضينا مهمات السفر وشواغله ، سافرنا مع الركب المصري للمدينة ، وزرنا تربة نبي الله ورسوله وأمينه ، وكل القاصدين عفر بتربته جبينه ، ولما رأى والدي ما نواه من المجاورة بذلك المزار يحتاج الى ذات اليد واليسار ، تعين الرجوع للمغرب ، اذ لا معجم لحالنا ولا معرب ، فاشترينا الرواحل والمزاد ، وتهيأنا للرجوع للبلاد ، وسافرنا مع الركب المصري فى الحجاز ، وقدمنا الحقيقة على المجاز .

فى مصر مع والده :

ولما بلغنا مصر نزلنا على الصاحب الذي كان فى ابتداء السفر لنا مصاحبا وكان والدي ترك عنده أسبابا لم تبع قبل سفرنا أوصاه ببيعها ، ويوجه ثمنها للمدينة الينا ، فاجتمع فى ثمنها فوق الستمائة ريال ، هي التي أصلحنا بها الاحوال، وفى اقامتنا بمصر كنت اجالس بالبيت ابن ذلك الصاحب وأشاهد منه عجائب ، كان له يد فى علم الرمل وعلم السيميا (2) ومن رأى تصوراته يحسب انه من الاوليا ، فشغفت بفنه واتخذته شيخا ، ولازمته حتى ملكت حبه بالسخا ، فجاد هو أيضا بما عنده فى الجريب ، وافادني فى امد قريب ، وأوقفني على ما فى علمه من خواص المعادن ، وما ينشأ عنها من الاسرار والعجائب التي يبلغ المرء بها أعلى المراتب ، واطلعني على ما يلحق بها

1) مدينة بالحجاز ثم ميناء للمدينة المذكورة تلي جدة فى اهميتها كميناء للتجارة يربطها بالمدينة طريق معبد 210 كم الى الشرق منها وادي ينبع وبه عدة قرى تعرف بينبع النخل تمييزا لها عن المدينة الساحلية التي تعرف بينبع البحر الى الشمال وادي العيص ووادي الجزل

2) او علم المعادن وهو فرع من الكيميا يعنى باستخلاص المعادن من خاماتها . ويعرف بـ « اسرار الحروف » . راجع ملخص ما ورد بمقدمة ابن خلدون فى الجزء 3 من دائرة المعارف فى القرن العشرين ص 412 .

من الحيل التي يستعملها المشعوذون ، ومن بحرها يستمدون ، فعدت بذلك مسرورا ، وقلت « كان » (1) هذا حجا مبرورا .

وفاة السلطان مولانا عبد الله سنة 1171 :

فبينما نحن على جناح السفر من مصر ، اذ بلغ خبر وفاة السلطان عبد الله رحمه الله (2) ، فى شهر ربيع الاول سنة احدى وسبعين ومائة والف ، وبيعة ولده سيدي محمد رحمه الله .

العودة والعمل مع السلطان :

فانحدرنا للاسكندرية (3) فوجدنا المراكب معطلة للحرب التي بين الافرنسيس والاصبنيول مع الانجليز ، لا يسافر احد لبر العرب خوفا من الزمنطوط فتوجهنا فى مركب للفرنسيس « للقزنة ؟ » فأقمنا بها أربعة أشهر ، وهناك بلغنا الخبر باستيلاء الافرنسيس على جزيرة « برطمعون » ، مأوى الانجليز فى البحر الاخضر ، تستريح بها قراصينهم ، واعطاها الافرنسيس للاصبنيول لقربها من بلادهم ، ثم توجهنا لمرسيلية ، ومنها لبرصلونة بر الاندلس ، فاقمنا بها اذ كان الافرنسيس محاصرا بجبل طارق ، واقام على حصاره سبعة أعوام .

ولما وقع الصلح بينهم واقلعت مراكب الافرنسيس من جبل طارق ، توجهنا له ومنه لتطوان ومنه لفاس فدخلنا بسبعة مثاقيل بقيت من البضاعة ولما استرحنا من السفر عدت للقراءة كما كنت ، ولما سألنا عمن كنا نألفه من الطلبة فى القراءة والانس ، وجدنا أكثرهم تعلق بخدمة **السلطان سيدي محمد** (4) ، لما بويع ، كالفقيه الاديب السيد أحمد ابن ناصر الفيائي .

والفقيه الاديب السيد احمد الغزال .
والفقيه الاديب السيد أحمد ونان .

---

1) كان غير موجودة فى الاصل وقد زدناها للحفاظ على سلامة اللفظ وجمال المبنى .
2) هو عبد الله ابن اسماعيل بويع (1141 ثم 1153) تردد على العرش 14 مرة بسبب تدخل جيش العبيد « البخارى » .
3) مدينة بمصر على ساحل الابيض المتوسط انشاها الاسكندر الاكبر سنة 332 ق.م مكان راقودة « راكوتيس » ظلت عاصمة لمصر حتى سنة 1641 تعزز مركزها بعد حفر قناة السويس (1820) اشتهرت بمكتبتها بها جامعة تضم 8 كليات .
4) هو محمد بن عبد الله بن اسماعيل الذي بويع بالاجماع 1171 وفى هذا الكتاب ما يشفي للتعريف به .

والفقيه الاديب السيد محمد السكيرج .
والفقيه الاديب السيد احمد ابن عثمان .
والفقيه الاديب السيد محمد ابن الشاهد .

هؤلاء كانوا اقراننا ومعاصرين لنا ، ومشاركين معنا فى القراءة والانس، وكان رفيق من طلبة سوس اسمه سعيد الجزولي ، ويعرف بالشليح ، كان يقرأ معنا وكان له ولوع بشراء كتب التاريخ ومطالعتها ، وكنت أسهر معه على سردها ، والفته فلم أشعر الا وهو عند السلطان سيدي محمد ، فلما بلغني خبره وما صار اليه حاله ، شرهت نفسي للحاق بهم ، وتعلقت همتي بخدمة السلطان ، فلما بلغ ذلك والدي رحمه الله ، نهاني عنها وشرح لي حالها ومئالها ، وقال لـــي :

يا بني اتق الله واشتغل بما يعنيك ، ولا تقدم على ما يضنيك ، فما لي سواك ، ولا استريح حتى أراك ، وبك اتعلل ، وازيل وحشتي ويحصل انسي، فساعدني الى أن تجعلني فى رمسي ، فقلت ان رفقائي ومن كنت آنس بهم ذهبوا ، وحصلوا على ما طلبوا ، وبلغوا الغاية فى العز والجاه ، وعلى من اقيم واترجاه ؟ واية معصية فى هذا المجال ؟ ولا بد أن اقتدي بمن قال :

لباب الملـــوك فكـــن لازمـــا ... ولا تخش ممن بغى او حســـد
فان الذئــاب تهـــاب اذا (1) ... تمــرغ يومـــا بباب الاســـد

فقال لي رحمه الله : ما لي اسعى فى نعيمك وتسعى فى بؤسي ، واحطب فى حبلك وتقصد عكوسي ؟ وانشدني قول ابي علي اليوسي :

لا تقربن مالكا ولا تلـــوذ بـــه ... ولو تنل عنده عزا وتمكينا (2)
يستخدمونك فى لذات انفسهم ... فيذهب العمر لا دنيا ولا دينـــا

وقال أجبني عن هذا فسكتت .

ثم قال وقد تكلمت يوما مع سيدي عبد الكريم السرغيني فى هذا المعنى فانشدني :

ان الملـــوك بلاء حيثما حلـــوا ... فلا يكن لك فى أكنافهم ظـــل
تحلو لديهم اذا عللت ما علـــوا ... فان نهيت رجعت عندهم كل (3)
فاستعن بالله عن ابوابهم تعلـــو ... ان الوقوف على ابوابهم ذل (4)

1) فى الاصل « تهـاب بهـا » وقد ابدلناها بـ اذا ليكون المعنى اسلـم .
2) ــ 3 ÷ 4) اوردنا هـذه الابيات كمـا هي فى الاصل على ما فيهـا مـن علـل نحـويـة وعـروضيـة ولغـويـة .

ثم قال وقد ظهر لي انك كالفحل الصائل والمراد بقول القائل :

واذا بدت للنمــل اجنحــة   حتى يطير فقد دنــا عطبــه
وان حاطت اتى ما ليس لــه   تيقن بان يحرقه حطبــه (1)

ثم قال واين انت عن قول من قال :

تباعد عن السلطان لا تفش بابه   فتسلب دنيا أوتصيبك واجدة
فليس ينام من الــم ببابــه   وان هو اغناه وسد مفاقــده
وما هو الا النار تحرق من دنا   اليها فلا تقربهواخشبوادره(2)

او ما سمعت قصيدة ابن الوردي المسماة نصيحة الكتاب التي منها :

جانب السلطان واحذر بطشه   لا تعاند من اذا قــال فعــل

واستمر على هذا المنوال الى التمام، ثم اقبل علي بأنواع النهي والتحذير ودقائق الوعظ فى الاول والاخير ، فلم ينفع عزمي نهيه ، ولا ردني انــذاره وهديه ، وسعيت فى ذلك من اصح طرقه ، وتقلبت فى منصب الكتابة من غربه لشرقه ، ولقيت من زعازع ارياحه ورعده وبرقه ، الى ان بلغت كورة الرأس ومضيق العنق ، ووقفت على دائرة الافق ، فى السفر والمقام ، مدة عشــرة اعوام ، ثم حصلت فى النكبة ، ووقفت على باب الندبة ، واقمت بين الهلكــة والتلف ، عام اثنين وثمانين ومائة والف ، وهي النكبة الثانية ، ولما خلصت من النكبة ، وكتب لي امير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله بعد الطلاق رسم الرجعة ، وقلدني ديوان كتابته ، واقبل علي بكليته ، وخلف لي ما ضاع ، وصرت بالماليك والاتباع ، وبلغت اعلى المراتب ، وتقلبــت فى المناصب ، وكان رفيقنا السيد سعيد السوسي مهر فى علم التاريخ والانساب، ومن عليه الكتاب ، فكتبت اباحثه وافاوضه وأحاربه وأعارضه ، وكان رجلا صلبا فى الحق ، زعيما مقداما ، لا يخشى من احد ملاما ، وكان امير المؤمنين رحمه الله له الباع الطويل فى التاريخ والانساب ، والتمييز بين ذوي السفه واهل الاحساب ، ومهما تكلم فى مسئلة مع الفقهاء الذين يحضرون مشوره ، يتكلم هذا الصلب من غير استدعاء ، ويشاركه فى الكلام دون نداء فانتهره أولى وثانية ، سرا وعلانية ، ولما علم امير المؤمنين طول باعه فى التاريــخ والانساب ، صار يستدعيه للكلام فى كل باب ، الى ان غضب عليه مرة لامر

1) وزنــه مختــل . 2) كذا فى الاصل : الروي غير متفق .

وقع فيه ، لا يرتكبه نبيه ، فأمر بضربه وسجنه ، وبعد مدة أمر بخروجه ونفيه ، وأمره بسكنى الرباط ووطأ له البساط .

فلما خلا من ذلك المشور محله ، صرت أعمل عمله ، وكلما تكلم أمير المؤمنين فى خبر أو نسب ، أتقدم وأتكلم فيما أعلمه ، وما لم اعلمه ، فتكلمت يوما : فقال لي : من أين لك هذا الخبر الذي لا أصل له يعتبر ؟ والتفت الى من حضر من الطلبة والواقفين ، والقضاة المعزولين ، اذ كانوا عن الحق منحرفين ، وقال لهم هل سمعتم بمثل هذه المقالة ؟

فقال قاضي شفشاون وكان صلبا جريئا ، هذا مما انفرد به وحده .

فقلت قال هذا قبلك بعض جهلة القضاة، وعاب على من قال الحق وحده ووبخه على الانفراد به وقال : الم تسمع قول الناس اخطأ مع الناس ولا تصب وحدك ، فاجابه بقوله ، قل هذا لابي بكر حين أسلم وحده ، فكأنما القمه حجرا .

فضحك أمير المؤمنين وقال له غلبك .

فصار يستدعيني فى كل موقف واجاريه فى الكلام ، وصار ذلك عادة فى مقام ، وكان رحمه الله نسابة أخباريا حافظا لايام العرب ووقائعها ، حافظا السير والحديث ، لا يجارى ولا يبارى ، لانه كان أيام خلافته بمراكش فى حياة والده ، ولع بسرد كتب التاريخ والادب ، الى أن تملى منهما وكاد أن يحفظ ما فى كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، من كلام العرب واشعارها ، ونوادرها واشعار المولدين ، وشعراء الاسلام ، الى أن تملى من ذلك ، ولما قلده الله أمر المسلمين بعد موت والده ، ترك ذلك وولع بسرد كتب السيرة والحديث ، وجلب المحدثين من فاس ومكناس ، انقلهم لمراكش .

كالعلامة الشريف مولاي عبد الله المنجرة اخي مولاي عبد الرحمان .
والسيد محمد ابن عبد الرحمان .
والسيد أحمد بن عثمان .
والسيد محمد ابن الشاهد .
والسيد الطاهر السلاوي .
والسيد الطاهر ابن عبد السلام .

وكلهم فرقهم على مساجد مراكش لتدريس العلم ويحضرون مجلسه بعد صلاة الجمعة للمذاكرة فى الحديث ، الى أن صار يؤلف فيه على مقتضى غرضه ، وعين لذلك من يستخرج له ما يريد .

ولما بلغه أن ولده **مولاي علي الخليفة بفاس رحمه الله** اعتنى بسرد كتب التاريخ والأدب ، امره أن يبعث له بما عنده منها بفاس ، فوجهها له وجمع ما عنده هو منها بمراكش ، الى أن اجتمعت عنده عدة نسخ ، من ابن خلدون ، وابن خلكان ، وقلايد العقيان ، والاغاني ، ونفح الطيب ، وتأليف ابن الخطيب ، وملأ منها صناديق ووجهها مع الكاتب الصنهاجي ، يوقف بعضها بمصر ، وبعضها بالاسكندرية ، وكتب لولده علي يقول :

« ان كتب التاريخ والادب هي آخر ما يقرا، فان اشتغلت بها اتلفت دينك وقراءاتك ، ووقع لك ما وقع لي ، فقد شغلت نفسي بها ايام الشبـــاب ، وتركت القرآن والتفسير والحديث حتى حصلت على الندامة ، فاياك ثم اياك ان تعمل عملي ، فتكون مثلي ، فتشبه بمن هو اعلى منك ولا تتشبه بمن مائلك او ادنى منك ، فتعلو همتك كما قيل :

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهـــم ان التشبه بالكـــرام ربـــاح

فان الله يرزق العبد على قدر همته ، قال الشيخ القصار ، كان **سيدي رضوان الجنوي** كثيرا ما ينشد هذا البيت :

قد رشحوك لامر لو فطنت له فاربا بنفسك أن ترعى مع الهمل »

وقال عليه الصلاة والسلام : تعبد رجل فى صومعة فأمطرت السمـــاء واعشبت الارض ، فراى حمارا له يرعى ، فقال يا رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري فيبلغ نبي بني اسرائيل ، فأراد ان يدعو عليه ، فاوحى الله اليه انما أجازي العباد على قدر عقولهم .

ولذا قال **عمر ابن عبد العزيز** (1) ، وهو امير بالمدينة لبعض الشعراء ، لما أتاه ، (ان نفسي تواقة فاذا بلغك اني فى اشرف من هذه المنزلة فأتني) ، فلما صار خليفة اتاه ، فقال له الم اعلمك أن لي نفسا تواقة فانها تاقت الى اشرف من هذه المنزلة ، ولم تقنع بشرف الدنيا ، فتاقت الى شرف الآخرة .

ولما كلم الله موسى عليه السلام تكليما ساله النظر اليه ، اذ كان ذلك لو وصل اليه اشرف من المنزلة التي نالها ، فالحر الكريم لا يقنع بمنزلة اذا راى اشرف منها ، فارفع همتك عما انت فيه الى ما هو أعلا منه يحصل لك التوفيق ان شاء الله ، وكان رحمه الله اذا تذكر مسألة غريبة يقيدها خوفا

---

1) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان الاموي « 682 ـ 719 » ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك اشتهر بتسامحه وعدله وورعه حتى انه لينعت بانه لم ياخذ من بيت المال شيئا

على نسيانها ، فاذا خرج للمشور وتكلم مع الفقهاء يلقيها لهم كالمستفهم عنها ، فاذا لم يجيبوه عنها ، يبينها ويقول لي (1) : زد هذه في جرابك ويضحك .

سفارة المؤلف عام 1200 :

وفي عام مائتين والف وجهني امير المؤمنين بهدية **السلطان عبد الحميد العثماني** (2) للاصطنبول ، وهي الرحلة الثانية من المغرب الى المشرق .

حد المغرب عند الحكماء والمؤرخين :

وحيث عزمنا على تقييد هذه الرحلات للمشرق ، الاولى والثانية والثالثة ، فلابد من تقديم خبر حد مغربنا ومدنه ومن عمره ، ومن بنى به قبل دخول البربر له ، وبعد دخولهم ، وبعد ظهور الاسلام ، فأقول :

---

1) ابو القاسم الزياني « 1734 ـ 1833 » .
2) سلطان تركيا ولد وتوفى « 1725 ـ 1789 » ولى السلطنة من (1774 الى 1789) بعد اخيه مصطفى آلت تركيا في عهده الى الضعف بسبب المعاهدة التي انهت الحرب بين بلاده وروسيا اذ بمقتضاها فقدت تركيا « آزوق » و (القرم) ومنحت حق حماية الرعايا المسيحيين بالاراضي التركية بالاضافة الى تعيين والى الافلاق والبغدان «رومانيا» كما كانت هذه المعاهدة السبب في اكراه النمسا لعبد الحميد على النزول لها عن ولاية « بوكوفينا » 1775 توفي وبلاده تخوض الحرب ضد روسيا والنمسا 1787 ـ 1791 خلفه على العرش سليم 3 .

بعض عجائب مدينة الاسطنبول :

رجوعــــا وعدنا للاسطنبول عشية اليوم ، ومن الغد توجهوا بنا لمسجد الملوك العشرة التي بالاصطنبول ، وكل مسجد ندخله يدخلوننا الى خزانــــة الكتب التي به ، وهي عبارة عن دار عظيمة ، بابها فى صحن المسجد ، وبها مقاعد كثيرة ، وبها من الطلبة عدد لا يحصى كثرة ، منهم من ينسخ ، ومنهم من يطالع ، وبعد العصر يخرجون ، ولا تعار الكتب ولا تخرج من الخزانة حرصا على حفظها وصيانة لها .

ولمــــا دخلنا مسجد السليمانية ودخلنا لخزانتها العظمى ، انزل لنا قيمها«ربيعة»(1) فيها فهرست السلطان سليمان سليمان أعظـم ملوكهم ، واعلمهــــم ، مكتوبة فى أوراق من فضة على شكل أوراق القزدير ، كتابتها بالتركـــي ، منحوتة فى الفضة ، مطعمة بحروف من ذهب ، ذكر لنا القيم على الخزانة ان فيها نسبه الى جده سليمان شاه الداخل ، فى اخوانه لبلاد الروم ، على عهد السلطان علاء الدين السلجوقي ، فى ايام الخليفة احمد الناصر لدين اللـــــه العباسي ، عام ستة عشر وستمائة ، **وعمود** نسبه الى يافت بن نوح عليه السلام ، وصارت هذه الفهرست عندهم أصلا معتبرا كل من ملك منهم ياتون بها محمولة فى كدش الى دار السلطنة ، يحملونها على رؤوسهم ويذكرون الله علانية ، وتوضع بين يدي السلطان وشيخ الاسلام والقضاء والعلماء والوزراء والامراء ، يتبركون بها ويكتب شيخ الاسلام البيعة ، وفيها يرفع نسبه الى سليمان ، وفيها ذكر اشياخه الذين أخذ عنهم ، ويضعون خواتمهم عليها ، ويدفع لهم الانعام والاكرام ، ويردوها لمحلها الى أن يوجه الوزير للمعلم الذي يكتبها فى ورقة الفضة بالذهب ، وتجعل الورقة فى الربيعة مع الاوراق ، وهذا الوزير هو الذي اتحفني بمطالعة « تأليف الروح » الذي ألفه كمال الدين باشا فى دولة آل عثمان ، ورفعه الى السلطان عبد الحميد قبل موته ، وكان فى قيد الحياة عام مائتين والف .

---

1) صندوقا : حسب التعبير الدارج بالمغرب الاقصى ، والربيعة عربية .

الزيانى وابن عثمان فى بيت كمال الدين باشا :

واختصرت التأليف المذكور واجتمعت بمؤلفه وامليته عليه ، **وخبر** عجائب الاصطنبول لا يسعها هذا الاختصار ، **وقد بسطت** الكلام فيها فى تأليف الترجمان فليطالعه من اراد الوقوف على ضخامة الاصطنبول .

ولما اتيت أول يوم لبيت الشيخ كمال بقصد سرد اختصار كتابه عليه ، وجدت صاحبنا السيد محمد بن عثمان سبقني اليه ، **حيث بلغه** اختصاري للتأليف ولم يجد هو اليه سبيلا ، بلغ به الحسد كل مبلغ ، واراد رؤيته ، اذ اخبره الترجمان بتوجهي اليه يوم الخميس ، فسبقني حتى يكون وقوفه عليه اتفاقيا غير مقصود .

ولما طال بنا الجلوس قال لي الشيخ بسم الله لسرد الكتاب ، فما وسعني الا ابرازه من تحت ابطي ، ارغاما لانف الحاسد الذي من جنسي ورهطي ، ولما فتحت السرد وقرات فحو الورقة اراد الحاسد أن يسومني باللحن والتخطي ، فقلت له ما قاله ابن القويقع الهاشمي لابن النحاس ، حيث اراد تخطئته بمحضر جم غفير من الناس .

لا تتكلم الا فيما تعلم ، ودع عنك ما لا تعلم .
فقال له الشيخ ليس هذا محل البحث ، وهذا مما يوقع صاحبه فى المقت .

والتفت الي وقال : من صاحب هذا المقال ؟

فقلت أعز الله جنابك : انها لمحمد بن القويقع القرشي الهاشمي التونسي اصلا ، المصري دارا ، كان بسوق الكتب ، وابن النحاس بجنبه ، والدلال ينادي على ديوان ابن هانيء ، فقبضه من يده ابن القويقع وفتحه ليراه ، فوقع نظره على بيت فترنم به وابن النحاس يسمع ترنمه بالبيت وهو يقول :

فتكات لحظك أم سيوف ابيك   وكؤوس خمرك أم مراشف فيك

ونصب الجميع .

فقال له ابن النحاس يا مولانا الشيخ ، هذا نصب كثير ، فقال له ابن القويقع نزه نفسك عما لا تعرفه ، وابحث فيما تعرفه ، فاني اعرف الذي اردت من رفعها ، على انها اخبار ابتداءات مقدرة ، والذي ذهبت انا اليه اغزل وامدح (1) ، وتقديره ، اقاسي فتكاتِ لحظِكِ فكأنما القمه حجرا فأراد

---

1) يعني اكثر غزلا ومدحا .

ان يزيل خجله وقال : يا مولانا لم لا تتصدر وتشتغل ، فقال له « وايش » هو النحو فى الدنيا حتى يذكر ، وكانت فيه بادرة وحدة ، وقط ما سعى فى ولاية منصب ،وبعد ان كان نائبا فى الحكم بالقاهرة ، تركه رحمه الله اه .

ولما سمع الشيخ كمال هذه الجملة ، قال لا تسرد حتى تمليها علي ، وكتبها ، وكان بالمجلس الشيخ احمد النميلي التونسي ، الذي شرح الكشاف وحسده علماء الاتراك اذ هو عربي ، فقال للشيخ سبحان الله هذا رجل غريب مثلي ، تسلط عليه غريب مثله ، كما يتسلط الغريق فى البحر على الغريق مثله ، فيتعلق به حتى لا ينجوا فيكون تعلقه به سببا لموتهما ، فلله در الصنوبري اذ قال :

محن الفتى اخبرتنا عن فضل الفتى كالنار مخبرة عن فضل العنبر

وقال :

اذا جمعت بين امراين صناعة فأحببت أن تدري الذي هو احذق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

وحيث سمع الشيخ ما سمع قال : ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : الحسد فى العلماء مغروز كما غرز البغض فى الجيران ، وقال الشيخ احمد النميلي : قال صلى الله عليه وسلم : لم يخلق الله وليا الا خلق له شيطانا منافقا يؤذيه ، فقلت يا مولانا الشيخ ، لسنا من امثال اولائك ، وانما نحن من صعاليك البربر الذين لا يميزون بين الطيب والخبيث ، فقد قال : « **ابو سالم العياشي** » من ازمة مغربنا : لم يزل شياطين الجن والانس يضمرون العداوة لاهل العداوة ، وينصر الله أولياءه بمقتضى وعده ، « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ، وينجيهم من كيدهم ويحميهم من شرهم بحمايته، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين » .

قال هذا لما ذكر قضية شيخه علي الاجهوري ، وان بعض المغاربة اراد اذايته فى نفسه ، وضربه بالحديد فى مجلس درسه ، بالجامع الازهر من مصر ، **وقال** الشيخ « **أبو علي اليوسي** » من ائمة مغربنا ، ما زال اهل الجنس ، يعني جنس الفقهاء يتحاملون على من يتوسمون فيه شغوفا عليهم ، ومزاحمة فى رتبة ، أو حظ ، الا من عصمه الله منهم ، وقليل ما هم ، كما قيل .

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغضا انه لذميم

وقد افتى بعض الفقهاء انه لا تقبل شهادة بعضهم على بعض ، لهـــذا المعنى ولاشك ان هذا ليس على العموم ، ولكنه شائع معلوم ، واعتبر بما وقع للامام سيبويه فقصته مشهورة ، وما وقع لسيف الديـــن الأمدي مـــع أهل مصر فانه لما برز عليهم في العلوم ، انكروه ونسبوه الى الاهواء وكتبوا عليه رسما بذلك ، ويوجهه بعضهم لبعض ، ليوقعوا عليه شهادتهم بذلك ، **ولما** انتهى الى بعض من وفقه الله وعصمه ، وقع تحت خطوطهم هذا البيت.

حسدوا الفتى اذا لم ينالوا سعيه فالقوم اعداء له وخصوم

وقـــد تناهى به ذلك حتى خرج من مصر ، وما وقع للفقيه محمد بن تومرت امام الموحدين المعروف بالمهدي ، لما قدم من المشرق ودخل مراكش واشتغل بدرس العلوم العقلية ، وكانوا اهل بادية لا يعرفونها ، فقالوا هـــذا ادخل علينا علم الفلاسفة ، ووسوسوا به لامير لمتونة علي بن يوسف ، فنفاه منها الى ان كان من امره ما كان .

ومثله وقع « لابي الفضل ابن النحوي » لما دخل « سجلماسة » فجعل يدرس أصول الدين واصول الفقه ، فمر به عبد الله بن بسام احد رؤســـاء البلد فقال : ما يقرأ هذا فاخبروه بما يقرأ ، وكانوا قد اقتصروا على علـــم الراي ، فقال هذا اراد أن يدخل علينا علوما لا نعرفها ، وأمر باخراجه ، فقام ابو الفضل وقال له : أمت العلم اماتك الله ، ها هنـــا ، فخـــرج ابـــن بسام صبيحة اليوم لعقد نكاح بباب المسجد ، فمر به جماعة من « ملوانة » احدى قبائل صنهاجة ، فناشوه برماحهم ، ومات بموضعه ، فارتحل ابن النحوي لمدينة فاس ، فسلط الله عليه القاضي ابن دبوس ، ولقي منه ما لقي من أبن بسام ، فدعا عليه فهلك ، ولما رجع لوطنه بالقلعة واشتغل بالتقشـــف ، تسلط عليه ابن عصمة ، فقيه البلد بالاذاية ، واكثر ما يقع هذا من أهـــل المناصب كالقضاة وغيرهم ، كما وقع للقاضي ابن الاسود مع الامام العارف بالله ابي العباس ابن العريف ، وللقاضي ابن البر مع ابي الحســن الشاذلي ، وكلاهما اخذهما الله بذنوبهما في الدنيا قبل الآخرة .

حكاية للمقرى بمصر :

وقـــد حكى الرئيس محمد الحاج ابن ابي بكر الدلائي ، انه لما حج وكان بمصر وقعت لابي العباس المقري مع فقهاء مصر غريبة ، وذلك انه لما دخل مصر حضر سوق الكتب وهو اذ ذاك لم يعرف ، فوقع بيده سفر من

تفسير كذا ، ففتحه فوجد فيه سورة النور ، وقد تعرض لمسألة فقهيــة غريبة ، فيها اختلاف كثير وتفصيل وبحث وجواب ، فحفظ جملتها ، في وقت مطالعته لها ، اذ كان حافظا، ثم اتفق بقرب ذلك، ان اجتمع الفقهاء في تلك المسألة نفسها في دعوى ، وحضر معهم فدفع المدعي للمفتي رسم دعواه ، فنظر فيه ودفعه لغيره فنظر فيه ، ودفعه للاخر ، الى أن بلغ لابي العباس المقري ، فلما قرأ الرسم استدعى بدواة وكتب عليه ما حفظه من التفسير المذكور الذي وقف فيه على القضية المذكورة في سورة النور ، ودفع الرسم لجاره ، فنظره ، ثم للاخر الى أن طالعه الفقهاء كلهم، فاستعظموا ذلك وانكروه، وقالوا له من ذكر هذا الذي كتبت ، قال لهم ذكره فلان في تفسير ســورة النور ، فالتمسوه فاذا الامر كما ذكر لهم فدخلهم من ذلك بما هو شأن النفوس .

وفــي نوازل المعيار ، ان القاضي ابن بشير سعى عليه الفقهاء حتى عزله المعتمد بن عباد لشفوفه عليهم ، ورد أقوالهم واجوبتهم وفتاويهــم ، حسدا وبغضا ، واستمروا على تنقيصه والسعاية به الى أن عزله ، وكذا وقع للامام ابن حزم مع علماء وقته لما اشتهر علمه وكثرت تصانيفه وكــان ينقض ما أبرموه في الاحكام ويرد فتاويهم ، اجتمعوا على تضايله ورشوا به لملوكهم وحذروا عامتهم من الاجتماع به الى أن عزل ونفي من البلد ونــزل البادية . **وكذلك** وقع للفتح بن خاقان مع ابي بكر بن الصائغ فانه كان في مجلس درسه يكثر مدح نفسه ، ويذكر ما وصله به امراء الاندلس ، وكانت تبدو من انف الفتح فضلة زرقاء ، ولما بلغ ابن الصائغ ما ذكره به الفتح في قلائده ومطمحه اجتاز به يوما وهو في ملأ من أعيان أهل الاندلس ، فوقف عليه وقال يا فتح سمعنا ما وصلك به الامراء فاخبرنا بمن وصلك بهــذه الزمردة التي على شاربك ، فخجل وانقطع ، وكان ذلك سبب جوازه الى العدوة ، وقصد مراكش فمات بها مذبوحا في فندق ، غفر الله له .

ما انصــف فـــاس ولا أعلامهـــا علمي الكثير ولا جلالـــة منصبـــي
لو انصفوا لصبوا الى كمـــا صبـــا راعي سنين الى الغمام الصيب



وخربوها ، ورتب جنده بالحرم الشريف وبالتربة النبوية ، ورتب لهم الكفاية ورجع لمصره اعانه الله .

رجوعا لخبر أزمير والترك :

لطيفة : فى مساوى الترك مع دينهم واكرامهم للغرباء واهل البيت والعلماء وبغضهم لجنس العرب ، وكنت قبل انكر على الطائفة الشعوبية الذين يفضلون العجم على العرب فلما رأيت الترك واستقريت احوالهم وجدت عامتهم على هذا الوصف ، وهم اكثر الامم فلم يبق لي التفات لتلك الفرقة الشعوبية القليلة ، التي هي من افراد الناس وخاصتهم ، واحتقرت امرها واهملت ما كنت اسمعه بمغربنا .

ما نسب لابن زكرى ، من تفضيل بني اسرائيل على العرب ليس بصحيح :

مما نسب للفقيت العلامة السيد محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي من انه الف تاليفا على راي الشعوبية ، فى تفضيل بني اسرائيل على العرب وشاع ذكره فى البلد ، ثم نسي مدة مديدة ثم حيى ثم نسي ، ثم ذكر فى هذه الازمنة بعد العشرين ومائتين انه شفع بآخر ايده به احد طلبة بني البناني يسمى احمد بن عبد السلام وايد بنصوص وحجج ودلائل وبدا مؤلفه واعاد ، وافاد اكثر مما استفاد .

ولما رجعت من رحلتي هذه الاخيرة سمعت بخبر هذا الثاني ، وكنت لم اطالع الاول الذي نسب للعلامة ابن زكري فشرعت فى البحث عنهما والطلب لهما من كل الوجوه الى ان قدر الله الاجتماع بمؤلف الثاني وهو الفقيه العدل السيد احمد بن عبد السلام بناني ، من غير قصد اتاني لبيتي مع بعض العدول فعرفني به ، وجاريته فى الكلام الى ان انس وانبسط ، وسألته عن التاليف ، الاول الذي لابن زكري والثاني الذي له فانكرهما وقال والله ما كان مما سمعت الا مجرد تشييع الحسدة من طلبة الوقت للعلامة ابن زكري وحسدة شياطين الوقت لي اما ما هو لي فاتيك به واما الذي هو للشيخ ابن زكري على هذا الوصف الشنيع فلم يكن وآتيك بما هو الحق الذي الفه ، وتابعته وانكرت على من شنع عليه ولمزه ، وبعد ايام قلائل اتاني بهما اما الذي له فليس من ذلك القبيل ، واما الذي لابن زكري فليس به اثر لهذا التفضيل ، للجنس الاسرائيلي على الجنس العربي الا ما ذكره المفسرون فى شرح الآية الكريمة وهي قوله تعالى واني فضلتكم على

العالمين ، وتعرض للكلام مع علماء وقته فى الانكار على من يفرق بين المسلمين ويفضل بعضهم على بعض ، يشير الى ما عليه عامة أهل فاس عربهم وبربرهم من حقارتهم وحطهم لهؤلاء المسلمة الذين يسمونهم البلد ، وعدم المبالاة بهم فى كل شيء وصار ذلك عندهم عادة لا تزول عنهم بحكم سلطان او فتوى عالم خلفا عن سلف ، والسبب فى احياء تاليف ابن زكري بعد نسيانه ما ذكره الفقيه العلامة الاديب البليغ سيدي محمد الطيب القادري فى تاليفه على الوفيات ذكر الشيخ ابن زكري ونسب له ما نسب من هذا التاليف ، وشنع عليه ما فيه وما ليس فيه بحسب ما شاهدنا وذكر كثيرا من علماء الوقت بما لا ينبغي .

حفاظ المغرب فى القرن الحادى عشر ثلاثة :

منهم العلامة المتقن الحافظ الورع سيدي محمد بن العلامة البركة الصالح سيدي ابي بكر الدلائي . وشنع عليه تشنيعا عظيما ، واورد عليه اعتراضا ظنه قويا جسيما ، وذلك فى قوله حفاظ المغرب فى زماننا ثلاثة :

1) حافظ ضابط ثقة ، وهو ابو العباس احمد بن يوسف الفاسي .
2) وحافظ ضابط غير ثقة وهو احمد المقري .
3) وحافظ غير ضابط ولا ثقة وهو عبد الله بن علي بن طاهر الحسني . انتهى كلامه (1) .

ثم بعد مدة كتب على هذا الكلام الفقيه النبيه الاديب الوجيه ، السيد سليمان بن محمد الشريف ، المدعو الحوات ، فى هامش الكتاب ما رد به ذلك ، واوضح ما انبهم عليه من تلك المسالك ، وقال :

هكذا كانت طريقة السلف الصالح أهل الصدر الاول يعدلون ويخرجون ، وان كان ذلك فيمن بلغ النهاية ، فى الشهرة والعلم والرواية ، وقالوا فى المجروحين من الطبقة السادسة انهم قوم غلب عليهم الصلاح والعبادة ، لم يتفرغوا لضبط الحديث وحفظه والاتقان فيه ، فاستخفوا بالرواية والجرح لابد منه اذ النصح فى الدين حق واجب لحفظ الحق من

---

1) لعل فى هذا الراي ما لايحتمل فى حق المولى عبد الله بن طاهر ، اذ اثبتت الرواية ان هذا الامام كان حجة فى الحديث سندا وضبطا وسلوكا . وان تاريخه مع السعديين لمعلوم . راجع كتاب الانوار الحسنية لاحمد بن عبد العزيز 1101 هـ ومرآة المحاسن للعربي بن عبد القادر الفاسي والسلوة للكتاني . (عبد الكريم الفيلالي)

الدماء والاموال والاعراض ، فاذا علمت هذا تبين لك ان ما ذكره ابن الطيب في تاريخه من التشنيع على ابن ابي بكر الدلاء من رد هذا التقسيم والتشنيع على قائله فهو خارج عن قصد قائله وهو ابو عبد الله محمد بن ابي بكر الدلائي لان قصده انما توجه لاعتبار مصطلح المحدثين في القديم ، وليس مراده الوقوع في هؤلاء الائمة فما فر منه القادري المذكور ، من الوقوع في مثل هذا المحظور ، فقد وقع فيه من ظنه السوء بهذا الامام ، الذي اتفق على رسوخه في العلم جميع الانام ، فوجد السبيل ـ هذا المؤلف الثاني الذي هو ابو العباس احمد البناني ـ للوصول الى هذا القادري الذي لمز قريبه ابن زكري ففوق فيه السهام ، ورماه بالدواهي العظام ، وكان مثل هذا في صدر الاسلام ، وذلك ان الفقهاء في عصر ابي حنيفة ، عابوا عليه الاخذ بالرأي والقياس ، فقال لهم ما جاءنا عن رسول الله فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن اصحابه اخترت منه ، وما كان غير ذلك فنحن رجال وهم رجال ، وقال يحيى القطان لا نكذب الله تعالى ما سمعنا احسن من راي ابي حنيفة وقد اخذت اكثر اقواله وقال ابو يوسف (1) قال ابو حنيفة علمنا هذا ، أرى وهو احسن ما قررنا عليه فمن جاءنا باحسن منه قبلناه ، وقال ابن حزم جميع الحنفية مجمعون على ان مذهب ابي حنيفة ان ضعيف الحديث عنده اولى من الرأي ، والشافعي احتاط لمذهبه وقال ان صح الحديث فهو كذا : وكان الشافعي يقول ما رأيت كاهل مصر ، اتخذوا الجهل علما لانهم سألوا مالكا عن أشياء فقال لهم لا اعلمها ، فهم لا يقبلونها ممن يعلمها لان مالكا قال لا اعلمها واصحاب الرأي والتأويل ضد اهل الظاهر كالحنابلة ، واصحاب داود وابن حزم الظاهريين رحمهم الله قال ابو الحكم منذر بن سعيد البلوطي يرد على المالكية هذه الابيات :

عذيري من قوم يقولون كلما طلبت دليلا هكذا قال مالك
وقد قاله ابن القاسم الثقة الذي على قصد منهاج الهدى هو سالك
فان عدت قالوا هكذا قال اشهب وقد كان لا تخفى عليه المسالك

وقال ابو محمد بن حزم لنفسه :

---

1) ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم « 731 – 798 » من اصل عربي اخذ عن ابى حنيفة ، وتولى رئاسة درسه كما اخذ عن مالك وكبار المحدثين ، اشتغل بالقضاء وصار كبير القضاة في عهد الرشيد ، وكان لهذا اثره في دعم المذهب الحنفي ونشره . له مؤلفات اخصها كتاب « الخراج » و « اختلاف ابن ابى ليلى » و (الرد على سير الاوزاعي) وكتاب « الاثار في السنة » .

من عـــذيـــري من اناس جهلــوا   ثم ظنوا انهـــم اهـــل النظـــر
ركبوا الراي عنـــادا فـــــروا   فى ظلام تاه فيــــه مـــن عبـــر
وطريق الرشد نهـــج مهيـــع   مثل ما ابصرت فى الافق القمـــر
وهو الاجماع والنـــص الـــذي   ليس الا فى كتـــاب « الاثـــر »

وله من قصيدة اخرى :

فخير الامور السالفات على الهوى   وشر الامور المحدثـــات البدائـــع

وقد بالغ فى التشنيع حيث قال :

ان كنت كاذبت الذي حدثتنـــي   فعليك اثم ابي حنيفة مع زفر (1)
الواشين على القيـــاس تمـــردا   والراغبين عن التمسك بالاثـــر

ولقد استطرد استطرادا قبيحا حاشى له ابو حنيفة وزفر ممن يقال فى حقهما هذا ، وبين اصحاب الراي واصحاب الظاهر خلاف شديد على الوقف فى قوله تعالى : « وما يعلم تاويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل عند ربنا » وكذلك اختلفوا فى الوقف عند قوله تعالى : « قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء » وقد رجح الوقف عليه امام المحدثين والمفسرين فى وقته ، وامير المؤمنين فى عصره ، مولاي سليمان بن مولاي محمد رحمه الله ، وكتب فى ذلك ما يؤيد عدم الوقف على شيء فليطالع تقييده فى الاية ، ومثل هذا اخبرني به صاحبنا الشيخ احمد النميلي التونسي أصلا ، لما اجتمعت معه فى الاصطنبول وهو من اعيان الاعلام ، والاجلة الكرام ، انه وقف عنـــد شيخ الاسلام على دفتر فيه عرض حال ، اعني تقييد مقال . فى عرفنا فان الشاكي عندهم على القاضي او على الامير او على السلطان يكتب ورقة يقيد فيها دعوته ولا يتكلم بلسانه ، يعرض فيها حاله وما يطلب ، يسمونها عرض حال ، وهذا الدفتر الذي فيه عرض الحال وجوابه كان وقع قديما ، وسببه ان فقهاء العرب الذين كانوا بالاصطنبول اجتمعوا واتفقوا على ان يكتبـــوا شكواهم لشيخ الاسلام والوزير الاعظم ، ورتبوا شكواهم فى عرض الحـــال يقولون للوزير وشيخ الاسلام :

---

1) زفـــر ابن الهذيل « توفي 774 » من أب عربي وأم فارسية من اقدم اصحاب ابى حنيفـة وادقهم قياسا . تولى قضاء البصرة فى حياة استاذه ونشر علمه بها . ولم توثر عنه كتب وانما وردت آثاره على لسان غيـره .

مطالب علمـــاء العـــرب لال عثمان 1151 هـ ـ 1738 :

لم يخف عن كريم علمكم ان الله اختار من خلقه محمدا رسولا للثقلين جنهم وانسهم ، وابيضهم واسودهم ، عربهم وعجمهم ، ولما قبضه الله قام بامر دينه خلفاؤه الاربعة رضوان الله عليهم فناضلوا عليه العرب والعجم ، الى ان رسخ وقاتلوا عليه من اباه ، ثم قام به من بعدهم من ملوك العرب ، وجاهدوا في الله حق جهاده الى ان فتحوا الامصار ، وبلغوا منتهى الاقطار ، وكل من دخل في هذا الدين الحنفي كان له مالهم ، وعليه ما عليهم من احمر واسود وعربي وعجمي ، بل كانوا يميزون العجم على العرب ، ويولونهـــم المناصب الدينية والدنيوية تأليفا لهم وجبرا لخواطرهم ، واقتداء بسنة نبيهم حتى صار اكثر المناصب السلطانية بايديهم وخالطوهم بانفسهم ، بعـــد ان كانوا تحت نبيهم حتى صار اكثر المناصب السلطانية بأيديهم وخالطوهم بأنفسهم بعد ان كانوا تحت قهرهم وغلبتهم، ما وضعوا من حقهم ولا احتقروهم ولا استبدوا دونهم بمنصب ، حتى ان منصب الخلافة الشرعي جعلوا لهم مثله وهومنصب السلطنة الذي يعادل الخلافة بل هو اعظم منها وتحت حكمه العرب والعجم، ثم كذلك قاسموهم في المناصب الدينية والدنيوية كالقضـــاء والفتـــوى والتدريس والحسبة والاراثة ، والامامة والخطابة والنقابـــة والحجابـــة والوزارة والامارة . طول ايامهم الى ان انقرضت دولتهم نحو من ستمائة سـنة او فوقها .

ولما صارت الخلافة والسلطنة للعجم استبدوا دونهم وانزلوهم عن مراتبهم بل اهانوهم وحقروهم ، ولو وجدوا السبيل لما وعي في صدورهم من العلم لا زالوه اجيبونا عن هذا بما يوافق الشرع العزيز والسلام .

وتوجه بهذا الدفتر اعيان فقهاء العرب لحضرة الوزير الاعظم وشيخ الاسلام الذي هو المفتي .

ولما قرىء عرض الحال ، امر الوزير باحضار القضاة واعيان العلماء واسمعهم ما في عرض الحال ، قالوا غدا ناتيك بالجواب ، وانفصل المجلس واجتمع القضاة والفقهاء عند المفتي على الجواب ، الى ان اتفقوا عليه وكتبوا تحته في الدفتر ، هذا الذي كتبه ساداتنا الفقهاء مما كان من اختيار الله تعالى لرسوله مولانا محمد بن عبد الله من كافة خلقه ، وارسله الى الثقلين ولما قبضه الله قام بامر دينه خلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم وجاهدوا في الله حق جهاده الى ان رسخ الدين ثم بعدهم ملوك العرب من بني امية وبني

العباس، وتبعوا ما كان عليه الخلفاء، وجاهدوا و فتحوا وبلغوا لقاصي البلاد، واسلم من اسلم من العجم ، وخالطوهم وقاسموهم المناصب السلطانية ، والمناصب الشرعية ، كل ذلك صحيح معلوم مشهور لا مرية فيه ، فمن شك فى نبوءة محمد ورسالته وسيرة خلفائه وعدلهم فقد كفر أو قارب الكفر ، ومن طعن فى عدل من اشتهر عدله من ملوك بني امية وبني العباس فقد اثم وباء بغضب من الله ، فقد كان عظماء ملوكهم على ما ذكرتم ولا خلاف عندنا فى ذلك .

ولما آل الامر الى خلفهم الذين هدموا حدود الشريعة ، وقدموا للمناصب من لا يخاف الله من العرب والعجم ، وجاروا فى الاحكام ، واستحلوا الحرام ، وتركوا الجهاد حتى استولى الكفار على ثغور المسلمين وغلبوا على سواحل مصر والشام ، بل على الشام كله وعلى مصر فى ايام بني عبيد وبني العباس ، ولولا ان الله تدارك هذا الدين المحمدي بملوك العجم من الكردية والسلجوقية والخوارزمية والعثمانية ، لترك هذا الدين جملة لعدم من يقوم من ملوك العرب وامرائهم ، وقلة انصافهم ، وعدم عدلهم ، فى الملك والدين ، فوالله لو دخلتم هذه المناصب الدينية لفسدت وبدلت الحقيقة بالمجاز وما تجعلونه حجة من استعمالنا لهذه القوانين فى الاحكام الشرعية لها أصل معتبر فى الشرع العزيز ، يعلمها من له تقدم فى فهم الكتاب والسنة، فلا تحدثوا انفسكم بالتقديم لهذه المراتب ، فان ولا يتكم لها هي ابتداء المفاسد ، فاقنعوا بما ترزقونه فى الملازمة والتدريس ، وما تنتفعون به من الكتابة والصحبة لكل رئيس ، وعليكم منا ازكى السلام ، فى البدء والختام ، قيد عام واحد وخمسين ومائة والف (1) .

1) يدخل هذا التاريخ ضمن ايام محمود الاول (1730 - 1754)

وقال الشيخ ابو عبد الله القسطلاني : دخلت على الامير ابي الربيع سليمان وهو بقصر سجلماسة ، وبين يديه انطاع عليها رؤوس الخوارج ، الذين قطعوا الطريق بفانة قرب السودان ، وبيده قضيب ابنوس ينكث به في الارض ، وهو يتمثل ويقول :

ولا غروان كانت رؤوس عداته جوابا اذا كان السيوف وسائل

ومات بعد الستمائة رحمه الله ، وقال لما هاجره المنصور مرة وهو بمراكش ، واتفق قدوم وفود العرب من افريقية ، ونزلوا بمثمر تانسيفت ، بظاهر مراكشة ، واستاذنوا في وقت الدخول ، فكتب ابو الربيع المنصور هذه الابيات :

يا كعبة الجود التي حجت لها عرب الشام وغزها والديلم
طوبى لمن امسى يطوف بها غدا ويحل بالبيت العتيق ويحرم
ومن العجائب ان يفوز بنظرة من بالشام ومن بمكة يحرم

فلما بلغت المنصور رحمه الله ، احسن اليه وأمره بالدخول بالقوم والتقدم عليهم ، واكرم الوفد وقضى اغراضهم ، نقله صاحب نفح الطيب ونقلته بالمعنى .

وفيه قال : ومن الوافدين على المغرب الاديب الامير شعبان بن كوطيط الغازلي الموصلي ، قدم على امير المومنين يعقوب بن يوسف بن عبد المومن لمراكش ، ورفع له امداحا جليلة ، فأكرمه وولاه امارة مدينة بسطة من الاندلس ، فتوجه لها وهو القائل :

يقولون ان العدل في الناس ظاهر ولم ار شيئا منه سرا ولا جهرا
ولكن رايت الناس غالب امرهم اذا ما جنى زيد قلدوا به عمرا؟!
والا فما بال النطاسي كلما شكوت له يمنى يدي ابعد اليسرا

وهو القائل :

عوى علي كليب لا اجاوبه وما علي في نبح الكلب من عار
لو كل كلب عوى القمته حجرا لاصبح الصخر مثقالا بدينار

فقد المؤلف ولده :

ونستطرد هنا من جملة النكب المتقدمة ، ما اصبنا به من موت الولد البار في منتصف رمضان ، عام (1233) جعله الله لنا في ميزان القبول ، وهون علينا المصيبة بعده ، ما وقفت عليه في الكشاف للزمخشري عند قوله تعالى : «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع،ونقص من الاموال والانفس والثمرات»